الطراز الموريسكي الجديد ومنهج سياسة التغيير الإستعمارية

في بداية القرن العشرين

سهيلة مظهر

Résumé : Nous abordons dans cet article le style néo-mauresque et ses différentes facettes dans l'architecture coloniale d'époque française en Algérie .
Cet impératif urbanistique et architectural répond à une politique délibérée par la classe politique française en vue d'imprégner l'image du pays colonisé d'une empreinte digne et honorable pour les descendants des romains. Nous ferons ressortir les causes et les étapes de ce style et les moyens mis pour la concrétisation de ce projet d'une portée identitaire et culturel

لقد عرفت الجزائر عدة طرز معمارية بصمت بشواهدها فترات تاريخية زادت من ثراء وغنى الموروث الثقافي لهذا البلد، وكانت الفترة الإسلامية العثمانية هي المرحلة الأخيرة لمنتوج المبدعين والحرفيين المهرة على أرض الجزائر لتبدأ بعدها المرحلة الاستعمارية المُظلمة في تاريخ الجزائر، والتي طبعتها عدة مظاهر خاصة تلك التي تخص الجانب المعماري الزُخرفي، وهي بداية اختفاء الأيادي الحرفية الفنية المحلية الجامعة لكل الحقب التاريخية وإندثارها فيما بعد، وانطلاقة لتجسيد عمارة المستعمِر الآتية من وراء البحار كتجسيد فكرة "عودة الأبناء إلى أرض الأم (روما)".

فقد كانت مدينة الجزائر ضمن عواصم بلدان المغربٍ (تونس والمغرب الأقصى)، المكان الأول لتجسيد فكر الطراز الغالب من طرف الحكام الفرنسيين ، ثم فيما بعد المكان الأول أيضا لتطبيق سياسة تغيير المنهج الحكومي الاستعماري من طراز غالب إلى طراز مُحافِظ عن طريق الإعلان الرسمي لنهضة معمارية جديدة تُغيِرْ بها فرنسا وجهها الاستعماري الغالب إلى وجه فرنسا المُحافِظ ، بدعوى مُهنْدِسيها المعماريين إلى إبراز على أرض الواقع طراز جديد تنبثق أُسُسُه من السجل المغربي-الأندلسي، ولكنه لا يخدم المبادئ المعمارية الإسلامية بل يخدم حاجات المُسْتعمَرة الأوربية بطريقة فنية مُبسَطَة ومُحَوّرَة وتخص فقط ميدان العمارة دون إدخال الفُنون التطبيقية.

فكانت القرارات الرّسمية الأولى المُعْطَاة من طرف الحاكم العام "جُونَار". المُحَفِزْ الحكومي . قد انطلقت من مدينة الجزائر عام 1900 وأعطت التصاريح لمكاتب الدراسات للبدء في تجسيد مظاهر هذه الهندسة المعمارية التي دخلت في السجل المعماري الفني المحلي، وأخذت مكانها كحقبة ضمن الحقب السابقة لكن بغياب أهل البلاد فيها. فَتَبَنِي الحكومة الاستعمارية الفرنسية في بداية القرن العشرين لهذا الطراز وتحميسها المهندسين الفرنسيين للإبداع والتفنّن فيه، أعطاه صبغة حكومية لم ينلها أي طراز سبقه، ومُنِح التدعيم الحكومي ليزدهر قرابة الخمسين سنة في أرجاء بلدان المغرب العربي الثلاثة [الجزائر، تونس، المغرب الأقصى]، ونتج عن هذه الرعاية الحكومية الاستعمارية أنه استطاع أن يمحي

ولو شكليا سياسة فرنسا الاستعمارية المتمثلة بطرازها الغالب Le style du vainqueur وهو الكلاسيكي الحديث Le néo-classique، الذي غيّر -أي هذا الأخير- وجه المدينة الجزائرية الإسلامية إلى شكل مماثل منعكس لوجه باريس الفرنسية، فحل الطراز المورسيكي الجديد بشكله الجديد في أعمال المهندسين وتطبيقاتهم الميدانية، فغدا فيما بعد محل اجتهاد المهندسين قصد تأسيس مدارس فنيّة بسجلات تنتسب إليهم وتُظْهِر سمة الاختلاف الفني عبر منتوجهم المعماري.

1- مفهوم الطراز المورسيكي الجديد

لقد اجتهد المهندسون والكتاب الفرنسيون الذين عاصروا أو جاءوا بعد الإعلان الرسمي لهذا الطراز عام 1900 بسنوات، في التفنّن للتعريف بهذا المولود الجديد في عالم العمارة الاستعمارية، والذي أنتجته القرارات الحكومية الاستعمارية الفرنسية، فغدى التنافس في إبراز خصوصياته وصفاته الجديدة محل الاهتمام، فكانت هذه الإجتهادات رغم قلتها تدور في فلك النزعة الإستعمارية ذات الشكل اللّاإنساني.

فمن الأوائل الذين عاصروا الإعلان الرسمي وكانوا من السبّاقين في طرح تساؤلاتهم حول مشكل الإلهام لهذه النهضة الجديدة هوالمهندس الابن "جاك قيوشان" Jacques Guiauchain" ويظهر ذلك في كتابه "الجزائر" لعام 1900، حيث يقدم فيه تعريفين موجزين: التعريف الأول يتضمن دعوته بعبارة "تطالب بالجديد"[1] والتعريف الثاني يتضمن قوله : "تشعر جميعا أنه يجب أن يكون في الجزائر أشكالا معمارية لطراز خاص"[2]. ويأتي الكاتب "ريكارد" "Ricard" بعده بأكثر من عشرين عاما ليُبَسِّط مفهوم الطراز في كتابه "حتى نفهم الفن الإسلامي في أفريقيا الشمالية وإسبانيا" بقوله : "في بناياتنا الجديدة، نبحث عن تسوية أو تراض موّفق بين التقاليد المحلية والحاجات الأوروبية"[3].

ويذهب المهندس "بيقان" "Béguin" بعدها بسنوات إلى أبعد من ذلك، حيث يقوم بإعادة إحياء إحدى التسميات التي عُرِفَ بها الطراز المورسيكي الجديد في تلك الفترة وهو "طراز جونار" " Le style de Jonnart"[4] (وهو لقب الحاكم العام الفرنسي الذي دعّم وحمّس المهندسين لإظهار هذا الطراز الجديد)، كما قام أيضا "بيقان" "Béguin" بتسمية هذا الطراز بالطراز المحافظ " Le style du protecteur"[5] لوجه فرنسا المُسْتَعْمِرَة، بقوله في هذا الصدد: "إنه انقطاع مع السبعين سنة من التقشف النيوكلاسيكي (الكلاسيكي الحديث)، لتبني الزّي النيومورسيكي Néomauresque (المورسيكي الجديد) ... فهو من المظاهر الأكثر وضوحا لسياسة فرنسا الاستعمارية الجديدة"[6].

---

(1) Guiauchain (J), Alger, Op.cit, p 119.

(2) Ibid, p 120.

(3) Ricard (P), Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne, Hachette Paris, 1924, p 306.

(4) Béguin (François), Arabisances , Décors architectural et tracé urbain en Afrique du nord, 1830-1950, Paris, 1983, p 20.

(5) Ibid,p20

(6) Ibid,p 20

وحتى تأخذ التعاريف صبغة التوضيح فقد قدّم لنا المهندس الابن "جاك قيوشان" " Jacques Guiauchain" مثاله الشهير الذي يفسر مفهوم هذا الطراز بقوله: "نأخذ مثال النافذة، فهي عنصر جد هام يفرض خصوصيته في المبنى، بالنسبة للمور فهم يريدوها صغيرة ونادرة، حتى يتسنى للشخص أن يأخذ مكانهُ فيها ...أما نحن فنريدها كبيرة وكثيرة، حتى نترك الهواء والضوء يدخلان بصورة واسعة، كما نريد أن نجعلها تمنع دخول الحرارة ... نافذتنا في الجزائر هي الإطار الواسع للوحة المنظر الشامل".[1]

أي بمعنى أصح، أن المهندس الفرنسي حسب تعبير قيوشان الابن المُكَلَّف من طرف الحكومة الاستعمارية آنذاك بتطبيق خصوصية هذا الطراز، يأخذ عنصرا معماريا ذا أبعاد روحية إسلامية (حُرْمَة النافذة مثلا) المرتبطة بالغيرة الشرقية على الحريم والحياة الخاصة، فيحافظ على خصائصه الشكلية كالتسييج القضيبي، البلاطات الخزفية والسقف القرميدي مع الزخرفة الهلالية ثم يضع هذا العنصر في المبنى ذا الأبعاد الأوروبية العصرية، فَيُدْخِل عليه بعض التعديلات التي ذكرها المهندس "قبوشان" تُشَوِّه بُعْدَهُ العقائدي والبيئي وتُلبي الحاجة الأوربية العصرية حسب تعريف "ريكار" "Ricard" سابقا فتعطينا النتيجة "نافذة نيومورسيكية" أي فضاء المرأة الأوربية نحو الخارج عبر الشكل المُحرّف لروح البُعْد المعماري المحلي.

هذا الشرح يأخذنا إلى أمر أَجِدُهُ خطيرا في معناه عندما نبّه نفس المهندس في نفس الكتاب بقوله : "يجب البدء في البحث داخل العمق أحسن من التوقف على الشكل، أي بمعنى آخر التوغل في فلسفة الفنون الإسلامية لكي نستخرج الأهم"[2] ثم يعطي نفس المهندس مثاله الثاني الشبه الشامل للتعريف بمفهوم هذه النهضة الجديدة قائلا : "بفضل مقدم البناء Avant – corps أصبحت منازل الفحص قابلة للسكن،حيث نقوم بوضع مدفأة في الجدار الداخلي لهذا العنصر المعماري ثم نرفع مرآة جميلة لسد الفراغ الذي شكلته النافذة، وهكذا تصبح لدينا قاعة الأكل أو قاعة الجلوس أو غرفة النوم..."[3] فهو بمعنى أصح استلهام المادة من العمارة المحلية (عناصر زخرفية أو معمارية) واستخدامها لتلبية الحاجات الأوربية العصرية لنصل في الأخير لنوع من تبني العناصر المعمارية المحلية لأدوار أوروبية دون أن ننسى لمسة المهندس وأبعاد تفكيره في الاستلهام المحض أو التغيير في اللمسات الأصلية، وهذا ما يطبع في الأخير مدرسة كل مهندس وخصوصياتها،فهو شكل من أشكال استعراب المباني المسيحية (الحكومية، المدنية...) حسب ما ذهب إليه الكاتب "بيقان" في كتابه الاستعراب "Arabisance"،لكن التساؤل الذي يطرح نفسه هل كانت هذه النهضة ذات أصول فرنسية بحتة ؟

---

(1) Guiauchain (J), Alger, Op.cit, p 122.

(2) Ibid ,p121

(3) Ibid, p 67.

2- مصدر اشتقاق المصطلح الموريسكي الجديد

الموريسكي الجديد Le néo-mauresque، كلمة مركبة من نيو néo وهي كلمة إغريقية تعني الحديث أو الجديد، ومن كلمة ثانية وهي الموريسك Mauresque وهم شعب المور الذي بقي على شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) بعد سقوط غرناطة في 2 ربيع الأول 897 هـ الموافق لـ 2 جانفي 1492م وانتسب إليهم قهريا هذا المصطلح ابتداء من نهاية القرن السادس عشرإشارة إلى المتنصرين الجُدد و بشكل أكثر دقة في فترة قد امتدت حوالي القرن من الزمن أو ما يزيد حتى سنوات الطرد النهائي ما بين 1609-1614بعد بحث مجلس الدولة مشكلة الموريسكيين لآخر مرة و تقديم تقرير بنفيهم صدر فيما بعد في 15 سبتمبر 1609 في قشتالة للأسباب دينية وسياسية أهمها اتهام الموريسكيين بمداخلتهم سرا وتحريضهم السلطان "مولاي زيدان" (سلطان المغرب) على غزو إسبانيا. [1]

أ- **اصطلاحا** : يُكتب المصطلح في اللغة الأجنبية كإسم علم أو كصفة adjectif، وفي اللغة الفرنسية يكتب ابتداء من القرن 17م بصيغة Mauresque انطلاقا من كلمة Maure[2] أما في اللغة الإسبانية فيكتب بصيغة Morisco إبتداءًا من 1349م وجمعها Moriscos كما نجده في بعض القواميس يكتب بصيغة "Morisque"، وهي كلمة مشتقة من لاتنية العصور الوسطى Mauriscus والتي تعني الأسود القاتم Le noir nâtre أما أصل الاسم العرقي "Maurus" فمنحدر من اللاتينية ومنه اشتق للصفة مورو "Moro" يعني شديد السمرة ،تسمية تطلق على مجموعة بشرية ذات البشرة السوداء.

فالمورسكس "Moriscos" تعني تحقير للفظ "مورو" الذي يقصد به مسلم العصور الوسطى بالأندلس كما أسلفنا الذكر، فهو تحقير يقصد به تصغير لهذا المسلم من "Moro" "مورو" إلى أصغر كلمة وهي مورسيكو Morisco[3]، وقد دخلت هذه الكلمة إلى ميادين متعددة، منها ميدان الفنون حيث التي ارتبطت بالماندور Le mandore لتسمى بالقيثارة الموريسكية، وفي ميدان الطبخ وجِدَ ما يسمى بالكوكتيل الموريسكي.[4]

ب- **تاريخيا** : يأخذ هذا المصطلح أبعادا تاريخية تمس الانتماء الإسلامي للفرد المسلم بما فيه مسلم الأندلس، حيث يقول الدكتور "محمد ضيف الله" من (مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات) : "الموريسكيون هم المسلمون الذين بقوا بعد سقوط غرناطة، وأطلقت عليهم هذه التسمية للتفريق بينهم وبين المور Les Maures التي تطلق على المسلمين قبل السقوط".[5]

---

[1] مكي (محمود)، تاريخ الأندلس السياسي 92هـ- 897هـ /711م-1492م، دراسة شاملة، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الأول، الطبعة الثانية، لبنان،1999،ص 140 .

[2] Rey (Alain), Mauresque, Le Robert, dictionnaire historique de la langue française, Tome II, 208. Paris, 1992, p1

[3] مكي (محمود)، تاريخ الأندلس السياسي ..... ص 136.

[4] المور: مصطلح اتفق عليه مؤخرا جميع المؤرخين، أنظر :

Rey (Alain), Maure, dictionnaire historique … p 1208 / Julien (André), Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc, dès origine à la conquête arabe, Payot, Paris, 1966, p10 / Mourre (Michel), Maure, dictionnaire encyclopédique d'histoire, km, 1978, p 2889.

[5] جاء هذا التعريف في مراسلة إلينا من مؤسسة التميمي بتاريخ زعوان في 30 .06 2002.

لكن ما لاحظناه هو أن صفة العرقية الملتصقة تاريخيا بالمصطلح غير مذكورة، لأنه لو أخذنا صفة سقوط غرناطة فقط عام 1492م 897هـ، لتعيين الموريسكيين الذين كانوا يعيشون تحت حكم الملكان الكاثوليكيان، فإن الأقلية المدّجنة قبلهم (أي قبل 1492)- وهي الرّعية المسلمة- كانت أيضا قد قبلت العيش تحت حكم ملوك إسبانيا إبّان حروب الاسترداد (ويقابلها في المثيل وضع أهل الذّمة وهي فئة المسيحيين الذين قبلوا العيش تحت حكم المسلمين وسموا فيما بعد بالمستعربين Les Mozarabes). فإذا كانت كلا الفئتين أي المدّجنين والموريسكييون قد أقاموا تحت حكم السيطرة الإسبانية، إذا ما هي الصفة العرقية لهذا المصطلح ؟

يقول "لويس كردييلك Louis Cardaillac" في هذا الصدد : "المورسيك معنى أكثر شيوعا والذي أعطاه له، هم المؤرخون المعاصرون، فالمورسيكيون هم المتنصِرُون للمسيحية وخَلَفْ المسلمون الذين أقاموا في جزء من إسبانيا ما بين 711م – 1492 (92هـ – 897هـ)، وهذه التسمية تستثني المسلمون غير المعمدين أي المسلمون المدّجنون والمتنصرون الجُدُدْ في شمال إفريقيا ..."[1]

ويضيف على هذا القول الباحث "حمادي" قائلا : "... والتي تعني (أي الموريسك) غير النصراني والموجهة خصيصا لتعيين أقلية المسلمين ودليلنا على ذلك أنها لا تطلق مثلا على أقلية اليهود أو غيرها".[2]

ويظهر هنا تفسير أحد القواميس الموسوعاتية والتي شاطرها الرأي نوعا ما فيما بعد الدكتور "كارديياك " والتي كانت منصفة في تفسيرها: "الموريسك أو الموريسكوس اسم أعطي للمور الذين بقوا في شيه الجزيرة الإيبيرية بعد نهاية حروب الاسترداد عام 1492 ... لكن الكاردينال خومينيث دي ثيسنروس Jiménez de Cisneros فرض على أقلية المور التعميد الجبري La Conversion forcée ... وفي عام 1599 قررت حكومة"فيليب الثالث" الطرد النهائي لهذه الأقلية"[3].

فإزاء إعادة تصنيف الناس تحت اسم الموريسكيين دون المغاربة "المور" ،قامت السلطات الإسبانية بإخضاع الأقلية المسلمة المتبقية على شبه الجزيرة الإيبيرية لمحاكم التفتيش[4] أو كما كان يسميها الموريسكيون محاكم الشيطان، فكانت إذن الميزة الرئيسية التي طبعت صفة هؤلاء الموريسكيين العرقية تظهر في قول "المقري" كاملة : "... إلى أن آل الحال إلى حملهم المسلمين على التنصر ... وتكلموا الناس ولا جهد لهم ولا قوة ... ثم بعد ذلك كله كان من أظهر التَنَّصُرْ من المسلمين يعبد الله في خفية

---

(1) Cardaillac (Louis), Les Morisques et l'inquisition, édition Publisud, Paris, 1990, p 11.

(2) حمادي (عبد اللّه)، قضية الموريسكيين ومحاكم التفتيش، 1492 – 1616،..... المرجع السابق، ص 50.

(3) Maure (Michel), Morisque, Bordas le dictionnaire encyclopédique d'histoire, km, 1978, p. 3039.

(4) قاد هذه الدواوين بإسبانيا الكاردينال دي تيسنروس خومينيش De Cisnéros Jiménez بمجرد مجيئه إلى غرناطة عام 1499 قصد مطاردة اليهود والمسلمين لإخضاعهم للتنصير أو الموت، أنظر : Rey (Alain), Inquisition, Le Robert dictionnaire historique de la langue française,tome 1,Paris,1992,p 1030 / Terrasse (Henri), Islam d'Espagne,une rencontre de l'Orient et de l'Occident , librairie Plon Paris, 1958, p 254.

ويصلي"[1]، أي أن صفة العرقية التي أوجز فأصاب فيها "المقري" هي التعميد الجبري المربوط بالتقيّة Taqiya[2].

وقد طبق المسلمون الأندلسيون هذه التقية بعد فتوى جاءتهم من مفتي بمدينة وهران بالجزائر عامي 1503-1504[3] أعطى من خلالها نمطا لصبغة موريسكية للإسلام بقيت في موضع التطبيق طوال الفترة الموريسكية في إسبانيا[4]، وعليه استبدل مصطلح المدجن Mudejar القديم بالمصطلح الموريسكي، الذي بدأ قيد الإستعمال في المصادر ابتداءا من القرن 16م بصفته العرقية المحددة.[5]

وحتى يكون التعريف شاملا فإن مصطلح المورسيك هو " معنى عرقي محدد أُعْطِيَ في نهاية القرن 16م لجماعة المسلمين السُنِيين والذين كانوا يسمون بالمور قبل 1492، والذين بقوا بعد سقوط غرناطة 987هـ 1492م بأرض رفضت وجودهم الحضاري بعد نقض معاهدة الاستسلام ،فاضطروا للتنصير الشكلي (التقيّة)، بعدما فرض عليهم التنصير القهري، فإزاء إعادة تصنيفهم تحت اسم الموريسك Moriscos دون المغاربة Les Maures قامت السلطات الإسبانية بخضوعهم لمحاكم التفتيش التي حرمتهم من حقهم في الاستمرار في الإخلاص لدينهم، والذين انتهى بهم الأمر إلى الطرد نهائيا ما بين 1609-1614 ".

3- أسباب ظهور الطراز الموريسكي الجديد:

أ- سياسة التهديم والتحويل :

عندما دُوِيّ صوت مدفع "لِزَنْفليد" "Les Invalides" [6] يوم الجمعة 09 جويلية 1830، تأكد الباريسيون والفرنسيون عموما من سقوط عاصمة الجزائر (القصبة) في أيدي

---

[1] المقري (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، قدماه د/ مريم قاسم الطويل ود/ يوسف علي الطويل، المجلد السادس، ط1،ص ص 280-281.

[2] التَقِيّة بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء مفتوحة، وهي المصطلح الذي يفيد تعليق المطالب الدينية عند الوقوع تحت الإكراه والتهديد لقوله تعالى **((من كفر باللّه من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من اللّه ولهم عذاب عظيم))** سورة النحل آية 106. ويسميها "تيراس" بالتقييد الذهني، أنظر: الفندي (محمد ثابت)، الشناوي (أحمد)، خورشيد (إبراهيم زكي)، يوسف (عبد الحميد)، التقيّة، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، 1933، ص 423، / Terrasse (Henri), Islam d'Espagne….. p.256

[3] يذكره "تيراس" بعام 1563 ويدعى هذا المفتي بعبيد الله أحمد بن بوجمعة المغراوي، أنظر : هارفي (ليونارد باتريك)، تاريخ الموريسكيين ... ص 327 / Terrasse (Henri), op.cit, p 256

[4] هارفي (ليونارد باتريك)،تاريخ الموريسكيين... ص 327.

[5] نفسه، ص 343.

[6] معلم يقع بباريس، أقيم بمبادرة من الملك "لويس 14" عام 1670م ليجعله ملجأ للجنود المشوهين والمبتوترين، بناه المخطط الليبيرالي "Bruant" ودُشِنَ من طرف Jules Hardouin Mansart وفيه يرقد جثمان العديد من الضباط من بينهم "ليوتي" Lyautey، انظر : Dictionnaire de la Langue française Encyclopédie et noms propres, Italie, 1994, p 672.

قواتهم العسكرية[1]، فزينوا بالأنوار شوارعهم الباريسية افتخارا لانتصارهم الذي لم يكلّف قواتهم سوى 20 يوما فقط لإسقاط دولة كانت قد أرهقت أوربا مدة ثلاثة قرون[2].

لكن هذا الانتصار لم يتحقق من سبيل الصدفة، فقد بدأ مع التقرير الكامل لعملية الاستطلاع الجديرة بالنظر التي قام بها "بوتان" "Boutin" رائد سلاح الهندسة العسكرية خلال إقامته بالجزائر (القصبة) من 14 ماي إلى غاية 17 جويلية[3] وما احتواه تقريره من وصف مدقق جدا لمدينة القصبة (عاصمة الجزائر آنذاك) وضواحيها وتحصيناتها والنقاط الرئيسية بها، مرفوق بمخطط مطابق لعملية الحملة الاستعمارية، المزعم تنفيذها آنذاك،لكن أمر تلك الحملة على الجزائر لم يؤخذ بعين الاعتبار إلا بمجيئ الأمير "بولينياك" "Polignac" كرئيس للمجلس في عهد "شارل العاشر" "Charles X" والذي عزم القيام بهذه الحملة بتحريكه السريع لعمليات الاستعداد العسكري ابتداءا من 7 فيفري 1830، وعليه انطلق الأسطول البحري بقيادة الأميرال "دوبري" "Duperré" يوم 10 جوان 1830 من ميناء "تولون" "Toulon" بفرنسا ومعه القوات البرية بقيادة القائد العام الفريق "الكونت دي بورمون" Conte de , Bourmont الذي أنزل قواته على شاطئ "سيدي فرج" حسب مخطط "بوتان "[4] يوم 14 جوان 1830 قبل طلوع الفجر ثم أقيم المخيّم المؤقت، لتبدأ المواجهات بين القوتين الحربيتين الجزائرية والفرنسية، و التي انتهت بسقوط القصبة يوم الأحد 4 جويلية 1830 والقبض على "الداي حسين" يوم الإثنين 5 جويلية 1830[5] وبتسليم هذا الأخير مفاتيح العاصمة للقائد العام "دي بورمون" واختياره مكان نفيه انتهى العهد العثماني في الجزائر وبدأت الفترة الاستعمارية المريرة.

ومع بداية الفترة الاستعمارية اتبعت الحكومة الاستعمارية في كل جانب من جوانب الهيمنة، سياسة تسلطية قهرية قصد إفراغ مجموع عُقَدِهَا التي كانت متراكمة عندها منذ العصور الوسطى حول العرب والمسلمين والشرق والشرقيين وحول الأمم المتحضرة.[6]

---

(1) Rousset (Camille), l'Algérie de 1830 à 1840, Tome I, 3ème édition, Librairie Plon, Paris, 1900, p.1

(2) Azan (Paul), L'expédition d'Alger 1830, Revue mensuelle carnet de la sabretache centenaire de la conquête d'Alger 14 juin - 5 juillet 1830, n°343 juin 1930, Paris, p 334.

(3) Azan (Paul) Op.cit,p328.

(4) Ibid, p 328

(5) Ghalem (Mohamed), Histoire de l'Algérie dès origines à 1830, Essai de synthèse, ouvrage collectif d'Algérie, histoire, société et culture, édition Casbah, 2000, p 39.

(6) د/ سعد اللّه (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1854، الجزء السادس، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص270.

فالمسألة هنا ليست مجرد احتلال أرض واستعباد شعب ولكنها مسألة انتقام من الماضي كله[1] فبمجرد تَذَكُرْ أن المسلمين كانوا متواجدين بجنوب فرنسا قد ترك آثاره في الأقاصيص التي تُرْوَى وحكايات "شارلمان وهارون الرشيد"[2] وجعل أحلامهم تتحطم للسيطرة على الشرق وعلى العالم الإسلامي.

فكانت الجزائر هي المكان الذي استقبل الكبت الفرنسي بعد فشل حملة مصر، وحتى يكون الفعل يعكس الانفعال الداخلي، كان التدمير والتهديم السمة الأولى التي ميزت أعمال الحكومة الاستعمارية غداة الاحتلال بقيادة رجالها العسكريين وتحت إشراف سلاح الهندسة الفرنسي، فكانت أولى الأعمال الاستعمارية ذات أغراض عسكرية بحتة وليست عمرانية حضارية كما كانوا يذكرون دائما - قوادهم - أنهم جاؤوا إلى أرض الجزائر قصد تنفيذ رسالة حضارية[3]، هذه الأعمال تمثلت في محو كل أثر للمدينة الإسلامية (القصبة) لمنح الامتياز والتفضيل في جعل مدينة الجزائر مدينة فرنسية[4] فبدأت عمليات التهديم العمراني المدمّر الشامل لأسفل القصبة بالقرب من الميناء[5] أين كانت توجد أجمل وأفخر المنازل المحلية[6] وذلك بعد إرغام العائلات الجزائرية والتركية على هجر منازلها لخارج البلاد[7] وهذا كله كان ضمن الممارسة الاستعمارية الفرنسية التي تقوم على تحطيم بنية المجتمع والقضاء على الأسس المادية التي يقوم عليها وتحييد القيم الحضارية التي يستند إليها[8].

فَهُدِّمَ كل ما هو أسفل القصبة واستبيح من خلاله المساس بكل شيء، فمن ضمن 122 مسجد بالعاصمة لم يبق منها إلا أربعة مساجد من النوع الذي تقام فيه صلاة الجمعة[9]، ولم تسلم حتى المقابر من التهديم والتنبيش وأما ما لم يهدّم فقد حوّل إلى أغراض أخرى. فمثلا المساجد حوّلت إلى مستشفيات وكنائس[10] وإلى إقامات للجمعيات الدينية أو لمخازن الحبوب أو إلى صيدليات ومسارح[11]، حيث يذكر "بيقان" مثلا أنه في عملية تهديم إحدى المساجد المشهورة ونحسبه "مسجد السيدة" فقد أعيد استعمال أعمدته لبناء أقواس شارع "البحرية" بالعاصمة، "Rue de la Marine" ، بينما باقي مواد البناء فقد أعيد

---

(1) نفسه، ص 171.

(2) نفسه، ص 270.

(3) د/ سعد اللّه (أبو القاسم)، المرجع السابق، ص 197.

(4) Malverti (Xavier), Alger 1860-1939, Le modèle ambigu du triomphe colonial, Autrement collection mémoires, édition Autrement, Paris, 1999, p 108.

(5) Béguin (François), Arabisances ....., p 103.

(6) كان حزام المدينة في 1830 يضم حوالي 12.200 منزل للسكن، حيث لم يبق سوى 8000 منزل أغلبهم في أعالي القصبة في السنوات الأخيرة للقرن 19، أنظر : Guiauchain (J), Alger.... p 21.

(7) سليماني (أحمد)، تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر، 1985، ص 101.

(8) سعيدوني (ناصر الدين)، الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 20.

(9) د/ سعد اللّه (أبا القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثامن، 1830-1954، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 392.

(10) Béguin (F), op,cit, p 11.

(11) د/ سعد اللّه (أبا القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس ..... ص 10.

استعمالها لبناء إحدى كاتدرائيات وبعض مباني الإيجار[1]، كما صُفِّيَتْ الأوقاف وأُسقطت مناعتها وأُخضعت لقوانين المعاملات العقارية الفرنسية[2] ، أما القصور والأحواش الريفية الخاصة فقد استولى عليها الاحتلال وحُوّلت إلى أملاك الدولة ونصبت فيها مكاتب الإدارات والمحاكم ومصالح أخرى كالمتاحف والمكتبات وإقامات رجال الدين ورجال الجيش[3] ، حتى الأبواب والنوافذ لم تسلم من همجية الاستعمار فقد خُلِعَتْ بدعوى أن فيها خزائن الذهب والفضة وكنوز أغنياء الجزائر.

هذا الاعتداء الذي خص بصورة فاضحة أسفل القصبة جاء حسب تبريراتهم لإقامة ساحة عسكرية كبيرة تحمل اسم الساحة الملكية La place royale، التي أصبحت تسمى ساحة الحكومة فيما بعد La place du gouvernement وهي حاليا ساحة الشهداء، وهذا حتى تلبي هذه الساحة الهدف العسكري العمراني، والمتمثل في تسهيل عملية تحرك وتجمع الكتائب وتنقل الآلات الحربية[4].و عليه بدأت عمليات توسيع عدة شوارع على رأسها شارع البحرية Rue de la marine بالقرب من الجامع الكبير بالعاصمة ، الذي كان أول شارع يُفَرْنَسْ ويخضع لقوانين المرور[5] قصد استعماله لغرض فتح الطريق للفيالق نحو الميناء[6] ،ثم بعده جاء دور الشارعين العريقين باب الواد وباب عزون[7] وعمليات ترصيفهما Alignement إذ كان اتساعهما يحدد دائما عمل آلات الفيالق والمعدات الحربية[8]، ثم تبعتهم عملية إنشاء شارع شارتر Rue Chartres وساحة شارتر La place de Chartres الثانية بعد ساحة الحكومة[9]، وهذه العمليات جميعها بما تضمنته من عملية إنشاء أو توسيع إنصبت في هدف واحد تَجَسّد في صورة ساحة الحكومة كمكان عسكري وكنقطة ضغط استراتيجية متوسطية لإخماد الثورات الداخلية بسبب هشاشة السياسة المتبعة من طرف الحكومة الاستعمارية آنذاك.

تحقير تام طغت عليه فكرة التمايز العرقي غير الأوربي ونظرة استعمارية هدامة ترسخت في أذهان العسكريين وهي تحويل مدينة محلية إلى مدينة أوربية، يقول "بيقان" في هذا الصدد أخذا عن المصلحة التاريخية للقوات المسلحة : "منذ زمن بعيد ونحن نستمر والآن نستمر أيضا في الاستيلاء على المساجد لجعلها قاعات مستشفيات، حوانيت وكنائس وأغلبها قد أغلق بدون استغلال معين"[10]، هوالتدمير

---

(1) Béguin (F), op.cit, p 11.

(2) د/ سعيدوني (ناصر الدين)، المرجع السابق، ص ص، 21-22.

(3) د/ سعد اللّه (أبا القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثامن ..... ص ص، 399 - 400.

(4) Béguin (François), op.cit, p 103.

(5) Guiauchain (Jacques), op.cit, p 23.

(6) Béguin (François), op.cit, p 103.

(7) Maluerti (Xavier), Alger 1860-1939 ...., p 108.

(8) Béguin (François), op.cit, p 103.

(9) Guiauchain (Jacques), op.cit, p 23.

(10) Béguin (François), op.cit, p 11.

الجذري لكل مقومات الأمة كانت بدايته فضيحة استيلاء الحكومة الاستعمارية على أملاك البيلك وعلى كنز الخزينة والمقدر آنذاك بـ 51.700,00 فرنك فرنسي.[1]

ب- سياسة المشاريع :

هي مشاريع أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر والمسماة بالمشاريع الأولى لعملية تمديد المدينة وإنشاء المدينة الجديدة خارج الأسوار، فكانت البداية بمشاريع 1846 والتي يُعَرِفُهَا "قيوشان الابن" بأنها المشاريع التي تحدد بها الأراضي العسكرية، والتي أقيمت عليها ما بين 1846 و1854 تحصينات المدينة الفرنسية ، والتي لم يكن لديها إلا ثلاث منافذ رئيسية تَجْمَع تَوضُع التحصينات وهي : باب إزلي Porte d'Isly جنوبا وباب الواد شمالا وباب الساحل[2]،وفيها احتكر Le Génie سلاح الهندسة العسكري الفرنسي أحسن الأراضي و الأقل انحدارا، حيث أنشأت فيها المساكن والأحياء الراقية منها ذات الأقواس قصد تخفيف حرارة الظهيرة كأحياء إزلي (العربي بن مهيدي) داخل الأسوار جنوبا كما أنشأت شبكة التراصف والمرور.

إن عملية التمديد هذه، ضمّت مساحة تعادل تقريبا تلك التي تضمها المدينة القديمة (القصبة) بأكملها وارتبط هذا بوجود الحدائق والساحات العمومية كساحة إزلي Place d'Isly (الأمير عبد القادر) وساحة شارتر Charters (التي أمر ببنائها المهندس "بوارال" "Poirel" عام 1837[3]) وساحة المحكوم عليهم بالإعدام حاليا ثانوية الأمير عبد القادر[4] والساحة الأولى وهي (ساحة الحكومة) ففيها كان رجال الأعمال يجتمعون والأناشيد العسكرية تقام فيها ثلاث مرات في الأسبوع وأيضا كانت مكان تقاعد الكتاب والرحالة[5]. وبحلول خمسينات القرن التاسع عشر جاءت مشاريع 1855 والتي سماها "بيقان" بمشاريع بناء المدن الجديدة "خلف خط تحصينات 1845"[6]وهذا الاجتياح لمدينة جديدة مستقلة وبعيدة عن التزاحم مع النسيج العمراني المحلي للقصبة، جاء لعدم تحقيقها، هذه الأخيرة، لاحتياجات المستعمرة الفرنسية، أضف إلى صعوبة التأقلم ضمن المدينة القديمة (القصبة) وصرف الأموال الطائلة لتحويل العديد من الطرقات والممرات إلى شوارع عريضة، وصعوبة تجسيد المخططات بصورة لا محدودة.

فانتهت أشغال الميناء والسكة الحديدية الساحلية ،والتي تظهر جليا في نواحي آغا بالعاصمة، وظهرت الأودية والمسايل Les ravins[7]) ووسعت الشوارع [الشارع لالير La Lyre حاليا بوزرينة عامي 1859-1862] وشقت بعضها [شارع روندون Randon حاليا علي لبوانت عامي 1865-1892] وافتتحت أخرى [شارع قمبيطا Gambetta حاليا وريدة مداد ما بين 1870-1892] وبني شارع الجمهورية Boulevard de

---

(1) Kaddache (Mahfoud), L'Algérie des algériens 1830-1954, édition Rocher - Noir , 1998, p 19

(2)) باب إزلي وباب عزون اختفتا عام 1901، أنظر : Guiauchain (Jacques), Alger .... p 45.

(3) Deluz (J), L'urbanisme et l'architecture d'Alger, aperçu critique, p 12.

(4) Guiauchain (J), op.cit, p 33.

(5) Délommé, Au pays de la blanche Alger, souvenires et visions, Alger, 1896, p 53

(6) Béguin (François), op.cit, p 107.

(7) Ibid, p 45.

la République حاليا "زيغوت يوسف" ما بين1861-1866[1]وهدمت تحصينات 1846 ما بين سنتي 1896-1898 ونزعت الأبواب على رأسها "باب إزلي" عام 1901[2] وانضمت "مقاطعة مصطفى" وجزء من مقاطعة سانت أوجين- Saint Eugène إلى مقاطعة العاصمة، وبنيت الأحياء خارج الأسوار كأحياء "مشيلي" "حاليا "ديدوش مراد" وباستور وحي إزلي خارج الأسوار[3]وارتفع مستوى المدينة السفلى بالقرب من البحر بـ 17م[4]، فأصبحت اللوحة الشاملة لمدينة الجزائر في أواخر القرن 19م تضم :

1- عمارة أوروبية داخل النسيج العمراني المحلي للقصبة العتيقة بعد تهديم ومسخ أجمل وأروع النماذج المعمارية، وما وراء الأسوار القديمة للقصبة.

2- مدينة أوربية جديدة خارج أسوار 1845 نموذجية لحياة الفرنسيين كما طلبها المعمرون الأجانب وكل منهما تحمل هندسة معمارية نيوكلاسيكية أو الكلاسيكية الحديثة بما فيها العمارة الدينية الكاثوليكية المسيحية التي تطبع الوجه الحقيقي لسياسة فرنسا بطرازها الغالب Le style du vainqueur كما يسميه "بيقان" ويطابق ما أشار إليه "مالفيرتي" عندما ذكر قائلا : "كان يجب أن يكون بناء المدينة الجديدة بجانب المدينة القديمة بأكثر عقلانية وليس على حسابها"[5] فأضحى من يدخل الجزائر في ستينات القرن 19م وكأنه في مدينة مرسيليا، تطبع قوة وهيمنة المستعمر وترسخ جذور عمارته وهذا وافق ماذهب إليه بالضبط "لبرادا" "Laprada" بعد أكثر من ثلاثين عاما، في المؤتمر العالمي للعمران الاستعماري عام 1930 : "أنه بعظمة وروعة معالمهم وأعمالهم العمرانية انتصرت الحكومات العظمى في كل الأزمنة، فالهيمنة والنفوذ كانتا الوسيلة الرئيسية للسيطرة على الشعوب البدائية الخاضعة لحكمهم"[6].

(1) Guiauchain (J), op.cit, p 43.

(2) Guiauchain (J), Alger .... p 45.

(3) للمزيد من المعرفة حول هذه المشاريع أنظر : Deluz (J), L'urbanisme…, p 13.

(4) Guiauchain (J), p 43.

(5) Maverti (Xavier), Alger 1860-1939….., p108

(6) Béguin (François), Arabisances…, op.cit, p 110.

4- مراحل ظهور الطراز الموريسكي الجديد

أ-مرحلة الانعطاف

أعلن الفرنسيون منذ البداية على لسان قادتهم أن هدفهم من الاحتلال هو تمدين الجزائريين "المتوحشين" أو نصف المتمدنين، وأن لهم رسالة حضارية يؤدونها، وتتمثل في إحلال النظم الفرنسية محل النظم الإسلامية القائمة وجعل اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة[1]، لكنهم وبعد سبع سنوات من احتلالهم للجزائر ظلوا يتساءلون حسب الماريشال "كلوزيل" "Clauzel"[2] "ماذا ستفعل فرنسا بالجزائر؟"[3] . وإلى غاية 1860 أراد نابليون الثالث إمبراطور فرنسا التخلص من الجزائر باعتبارها عبئا، ومنحها الاستقلال الذاتي وجعل الجزائر تخضع له، فقام بإنشاء ما أسماه بالمملكة العربية Le Royaume arabe قصد التخفيف من حدة السياسة القمعية المتبعة من طرف الحكومة الاستعمارية اتجاه الشعب الجزائري، فجاءت رسالته يوم 6 فيفري 1863 في هذا المنهج موضحة أفكاره : "يجب إقناع العرب بأننا لم نأت إلى الجزائر لاضطهادهم ونهبهم بل لجلب منافع الحضارة لهم، فالجزائر ليست مستعمرة فرنسية بمعنى الكلمة لكنها مملكة عربية"[4]. تناقض تكشفه رسالة الأسقف" لافيجري"Lavigerie إلى هذا الامبراطور يوم 22 أفريل 1868 إثر الأزمة الاقتصادية التي أصابت الجزائر حيث جاء فيها : ".... بعضهم لكي لا يموت فإنه يأكل الأعشاب وكذلك جلود الجثث، حيث أننا عثرنا على حالات آكلي لحوم البشر L'Anthropophagie"[5]. لتجسيد فكرة هذه المملكة والوصول إلى تطبيقها كان عليه –أي الإمبراطور -إعطاء دور جديد لسياسة فرنسا القمعية والمدمّرة لكل ما يتصل بالجزائري خاصة، فجاءت مرحلة الانعطاف التي اتبعتها الحكومة الاستعمارية برئاسة الإمبراطور، و بدأت بوادرها بزيارة للجزائر من 03 إلى 07 جوان 1865[6]، اخذة غايتين الأولى : لترسيخ القدر الاستعماري ولتسجيل الوقت الذي تكون فيه الأهداف الاقتصادية للحكومة الاستعمارية قد أخذت خطاها على الأهداف العسكرية، أي التخطيط لتركيبات جديدة استعمارية ذات أبعاد اقتصادية على شاكلة الاستثمارات العسكرية.[7] والذي هو بكل بساطة "سياسة مملكة الرأسماليين ورجال مال باريس".

---

(1) د/ سعد الله (أبو القاسم) تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، الجزء السادس..... ص197.

(2) الكونت برتراند Conte Bertrand كلوزيل Clauzel - Clausel (1772-1842) ماريشال فرنسا عام 1831، خلف الماريشال دي بورمو De Bourmont في حملته على الجزائر عام 1830 وأصبح الحاكم العام للجزائر وإليه ينسب تهديم مسجد السيدة بالجزائر وقد عاد ثانية إلى الجزائر كحاكم عام وقائد للقوات الفرنسية لإفريقيا عام 1835 وقد قدم استقالته إثر فشل حملته على قسنطينة عام 1836 كما أنه اتهم بعدة تهم جعلته يرّد عليها في كتابه المشهور "شروحات كلوزيل"، أنظر : Dictionnaire de la langue française encyclopédie et noms-propres, Italie,1994, p 258. /Soulié (Frédiric), Explications du maréchal Clauzel, édition Amboise Dupont, Paris, 951837, p.

(3) Soulié (Frédiric), Op.cit,p5

(4) وكان يود وضع الأمير عبد القادر كنائب الملك لإدارة هذه المملكة، لكن هذا الأخير رفض طلبه، أنظر : عباد (صالح)، الجزائر بين فرنسا والمستوطنين، 1830-1930، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، قسنطينة، ، ص ص 24-34/ JAGHLOUL (Abdelkader), l'Emir Abdelkader, homme de politique, guerrier, poète, in Ibtikar, revue mensuelle, n°1, janvier 1998, les éditions internationales, p 40

(5) Martin (Claude), la commune d'Alger, 1870-1871, éditions Héraklès, Paris 8è, 1936, p 15.

(6) عباد (صالح)، المرجع السابق، ص 42.

(7) Béguin (François), Arabisances…… op.cit., p. 29

أما الغاية الثانية من زيارته كانت قصد إصدار القرارات التي تتعلق بالوقت الشامل لمظاهر التدمير والتخريب لمدينة الجزائر، وأيضا كنقطة انطلاق نحو سياسة الحفاظ على المراكز العمرانية الكبرى الخاصة بإفريقيا الشمالية، وكذلك ترميم المصالح المعمارية للفن العربي[1] : "يجب أن تحفظ المدينة شكلها الحالي، وفي هذا المعنى يجب أن يبقى أعلى المدينة كما هو، يُلائم العادات وتقاليد الأهالي (الجزائريين)... وأن كل أعمال التهيئة لا تستطيع سوى أن تثقل كاهل نسمة الأهالي (Indigènes) التي لا تتماشى حياتها مع أساليب حياة الأوروبيين، وحسب جلالته -أي الإمبراطور- يجب أن تبقى المدينة السفلى خاصة لعيش هؤلاء."[2]

وتبعا للتحقيق الخاص الذي تابعه الامبراطور مع الأماني المعبر عنها من طرف الأهالي، استخلص أنه لابد لمدينة القصبة أن تحتفظ بملامحها الحالية و التي يجب أن تبقى كما هي باعتبارها تلائم عادات وأخلاق المحليون[3] أي تطبيق فكرة (كسب الود).

قرار التوقيف هذا الذي أصدره الامبراطور، أعطى رؤية جديدة في عالم الهندسة المعمارية رغم أن الكثير من المؤرخين يجمعون على تواجد التناقض في سياسة هذا الامبراطور، إلا أن قراره الحاسم أعطى الحق في التفكير في إخراج شكل معماري يكسب ثقة ووّد الجزائريين بسيكولوجيا ويغير نظرتهم لسياسة فرنسا الاستعمارية من جهة، ويركز جذور الاحتلال ويلبي الحاجة الأوروبية من جهة أخرى، دون صرف الأموال الطائلة والعتاد العسكري لاستوعاب الغضب الشعبي الذي ربما كان سينفجر نتيجة إبادة الهيكل الهندسي المحلي للقصبة.

ب- مرحلة التدعيم الحكومي الرسمي :

كل الأمور بدأت تتغير مع نهاية القرن 19م وبداية القرن العشرين وبالضبط في 1890م عندما بدأ التفكير في بناء مبنى إداري جديد يخص المحافظة (حاليا مقر الولاية)[4]، في محاولة لإبراز طراز جديد يساير الطرازين الموجودين المحلي والكلاسيكي الحديث،ويلبي الحاجة الأوربية العصرية وقد تجسد ذلك رسميا عند مجيئ الحاكم العام "جونار شارل " (1857-1927) في عهدته الأولى (1898-1900)[5] واهتمامه شخصيا بهذا الإبداع الهندسي الجديد واهتمام الحكومة الاستعمارية بهذا أيضا، حيث قام بإعطاء توجيهات حكومية عام 1900م في عهدته الأولى وحث المهندسين الفرنسيين بتطبيق طراز جديد يخدم الاحتياجات الأوربية ويسير جنبا إلى جنب مع المحافظة على العمارة المحلية.

---

[1] Béguin (François), op.cit., p.14

[2] مقطع من رسالة المحافظ إلى عمدة مدينة الجزائر، قرأت أثناء دورة المجلس البلدي يوم 15 ماي 1865، أنظر :
Samar (Kamel), contribution à la connaissance de l'architecture néo-mauresque à Alger : cas de la grande poste, mémoire de magistère en préservation et mise en valeur des sites et monument historique, EPAU, Mars 2004, p.164.

[3] Béguin (François), op.cit, p 11.

[4] Braibant (Charles), Les préfectures françaises, 1953, p 293.

[5] Deluz (J), op.cit, p 31

فالناظر لهندسة الجزائر المحتلة طيلة السبعين عاما (1830{سنة الإحتلال} + 70 {مدة الإحتلال}= 1900{سنة إصدار القرار}) يتأكد من غلبة وانتصار الانتماء العقائدي الفرنسي في الهندسة الكلاسيكية الحديثة ويؤكد المقولة التي قالها الحاكم العام للمغرب الأقصى "ليوتي" "Lyautey" في بداية القرن العشرين : "هنا في إفريقيا الشمالية في كل شبر وتحت أقدامنا آثار روما العظيمة، وهذا إنما يدل على أننا في مكاننا الصحيح، بمعنى أصح في الصف الأول من الحضارة"[1]، فقد كان لازما، البدء في التفكير في وضع طراز جديد على الأقل يخرج فرنسا من مأزقها الدولي اتجاه التدمير التسلسلي لإرث أمة أي إعطاءها وجها جديدا لسياستها، سماه "بيقان" بـ "طراز فرنسا المحافظ" " Le Style du protecteur" بالإضافة إلى الدور الإعلامي المكتوب في تلك الفترة والذي لعب دوره من خلال الومضات الإشهارية والتي زادت من اهتزاز مشاعر الجزائريين عندما بينت لهم الاختفاء التدريجي لمدينتهم (القصبة القديمة) ،فأصبح الوضع يستلزم قفزة في عالم الهندسة المعمارية تطابق ما ذكره "قيوشان الابن" في كتابه : "هذا الابتكار يستطيع أن يثير نهضة فنيّة مهمة"[2].

فإزاء التطور السريع للعمارة الكلاسيكية الحديثة طلب "جونار"الحاكم العام للجزائر من المهندسين المعماريين المكلفين ببناء العمائر العمومية أن يحرّوا مشاريعهم داخل الأحاسيس والمشاعر المستلهمة من العمارة المحلية (الموريسيكة) فأطلق مقولته الشهيرة "امتلكوا التخيلات والإبداعات"،فبدأت الانطلاقة الفعلية لكل من لديه علاقة من قريب أو بعيد في تحسين صورة فرنسا الخارجية والداخلية بالخصوص،فانطلق المهندسون في العمل قصد الابتكار، وتأسست اللّجان والجمعيات أمثال لجنة "أصدقاء الجزائر القديمة" برئاسة هانري كلاين عام 1905م، وتأسست العديد من المؤسسات العلمية بما فيها مؤسسات الفنانين الجزائريين (دون الأصليين طبعا) والمستشرقين، ومؤسسة "جغرافية العاصمة وإفريقيا الشمالية" ضف إلى عملية إنتاج الكراريس السياحية لإظهار الأوجه المتعددة لبنوراما الجزائر ، أما المظاهر الفنية فنجد على رأسها المعارض الدولية لتغيير الموقف الاستعماري اتجاه مفهوم الحفاظ على الإرث المحلي،مباشرة بعد زيارة الامبراطور نابليون الثالث "الجزائر عام 1865م وهذا بتدشين (معرض تونس عام 1867م) ثم (معرض باريس 1889).

(1) Béguin (François), po.cit., p 23
(2) Guiauchain (J), op.cit., p 119

5- الأهداف المرجوة من وراء النهضة المعمارية الجديدة :

إن النوايا الظاهرة لمساعي الحكومة الاستعمارية من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والمجسدة في شخص الحاكم العام "جونار شارل" تُظْهِرْ الحب العميق اتجاه ما تبقى من النسيج العمراني المحلي وتُظهِرْ قلق هذه الإدارة اتجاه غلبة العمارة الكلاسيكية الحديثة طيلة السبعين عاما (1830{سنة الإحتلال} + 70{مدة الإحتلال} = 1900م{سنة صدورالقرار الرسمي}).

وهذا يطابق ما سعت إليه الإدارة الاستعمارية لتغيير صورة فرنسا القمعية إلى وجه فرنسا الأبوية القلقة والمحترمة للتقاليد[1]، لكن ما لا يختلف فيه اثنان وطيلة الأحقاب التاريخية السابقة، أن كل إدارة استعمارية لأي بلد مستعمر أبدا لن تعطي الراحة والطمأنينة لهذا الأخير، بل تُظْهِرْ أشكالا متشابهة على شاكلة العمل البسيكولوجي حتى تستوعب غضبه الشعبي وثوران التمرّد الذي قد ينبعث دائما من طبقة الشعب. والحاكم العام "جونار" حتى وإن تعددت أعماله لصالح الجزائر فكلّها تنصّب في تطبيق الإرادة الاستعمارية، حيث يقول هنا الدكتور سعد اللّه أبو القاسم : "... وقد عُرِفَ عنه -يعني جونار- أنه كحاكم فرنسي سلك سياسة أهلية تقوم على تطوير الجزائر كما هي، ولكن داخل القالب والسيادة الفرنسية ... فقد لجا "جونار" إلى عدة إجراءات لتمزيق وحدة الجزائريين اللّغوية والعرقية وسار في ركب الكولون والمستشرقين"[2]. فَرَفْعُ شعار "المُحافظ" وتغيير سياسة التعامل في فترة كانت فيها فرنسا أقوى القوى الاستعمارية في العالم آنذاك يعطي انطباعا بانتهاج سيطرة بسيكولوجية وتطبيق قانون الانجذاب "أنا انجذب إليك، انجذب إلى أنت أيضا".

فلدى عهدته الثانية 1903 - 1911 صرح الحاكم العام "جونار" يوم 21 ديسمبر 1903 : "لقد ملكنا الأرض، فهل ملكنا الأرواح ؟ بالنسبة للمسلم فإن الإسلام هو الديانة التي صاغت وشكلت روحه وقلبه، الديانة التي علمته أولوية المسلم على غير المسلم حتى وإن كان هذا الأخير قد أعلن إسلامه في لحظة ما"[3]. إذن كل هذا تلخصه رسالة "نابليون الثالث" التي أرسلها إلى "لافيجري" أسقف مدينة الجزائرو التي جاء فيها: "عليك بتربية ووعظ الأوروبيين أما العرب فاتركهم للحاكم العام يُعوِّدهم على الهيمنة الفرنسية"[4].

فالاحتلال الاستطياني فتّت النسيج الاجتماعي سواء في الأرياف أو في المدن واعتدى ماديا ونفسيا وذوقيا على العمارة التقليدية كمحصلة لثقافة المجتمع، تُوجِه أسلوب حياته وتَطوُره، وبهذا انكسرت وتيرة الاستقرار والانسجام مع المكان ورموزه فتشرد الإنسان وصار من الصعب أن يعيد التواصل مع ماضيه ويبعث ذاته التاريخية إلى الوجود من جديد لتتصالح مع فاعليته في الحياة.[5]

هذا الغياب للسلوك الجمالي وتوتر علاقة الفرد بالمكان وغربة ذات الجزائري في تفاعلها مع الحياة، ساعد في ترسيخ وانطلاقة هذا الطراز على أرض الواقع بيد مهندسين فرنسيين، وكان ذلك التمهيد الذي إستغرق سنوات

---

(1) Béguin (F), op.cit, p 25.

(2) د/ سعد اللّه (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 - 1954، الجزء السادس،..... ص 289.

(3) Faissolle (Louis), Un illustre gourayer : Charles Jonnart, la revue l'Algérianiste, n°79, Septembre 1997, p45

(4) د/ سعد اللّه (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 - 1954، الجزء السادس ... ص ص / 124-125.

(5)) بخوش (الصادق)، التدليس على الجمال، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، 2002،ص 56.

ناجحا إذا ربطناه بقبول الجزائريين لتلك التحف النيوموريسكية، وكأنها من إبداعات الأجداد الأوائل قبل 1830م. وحتى يعطى لهذا الانعطاف- في سياسة فرنسا المُحبّة الأبوية المُحَافِظَة على النسيج العمراني للشعب الجزائري- الصبغة الإنسانية كان لموجة الاستشراق في أوربا وخاصة في فرنسا خلال القرنين 18 و19م دورا قويا وفعالا في ترسيخ أفكار هذا الحاكم العام وتطبيقه للطراز، وذلك بشكلها الإنساني المُحبّ لكل ما هو استشراقي ينبع من مشاعر أشخاص مدافعين عن هذه الموجة يسعون لاستمرارها، ليساعد في النهاية هذا الدفع الإنساني الحكومة الاستعمارية في الاستمرار بكل عزم ودفع قوي ومهّد لها الطريق لترسيخ مفاهيم وأهداف هذا الطراز.

إن هذا الكلام يأخذنا إلى ما ذكره المفكر الجزائري "مالك بن نبي" عندما وصف تحَكُم المُستعمِر في مصير المُسْتَعمَر كوضع القاصر تحت الحماية: "فهو لا يستهدف تحطيم (القاصر) ماديا فقط ... إن هدفه أبعد من ذلك، فهو يريد تحطيم كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان المُسْتعْمَر إلى التقدم والحضارة برنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التحطيم المعنوي، من تلويث أخلاقي يحُطّ أولا من قيمة الفرد الشخصية ومن كفاءته"(1).

(1) بن نبي (مالك)، في مهب المعركة، إرهاصات الثورة، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر بدمشق، الطبعة السابعة، 2006، ص 34.

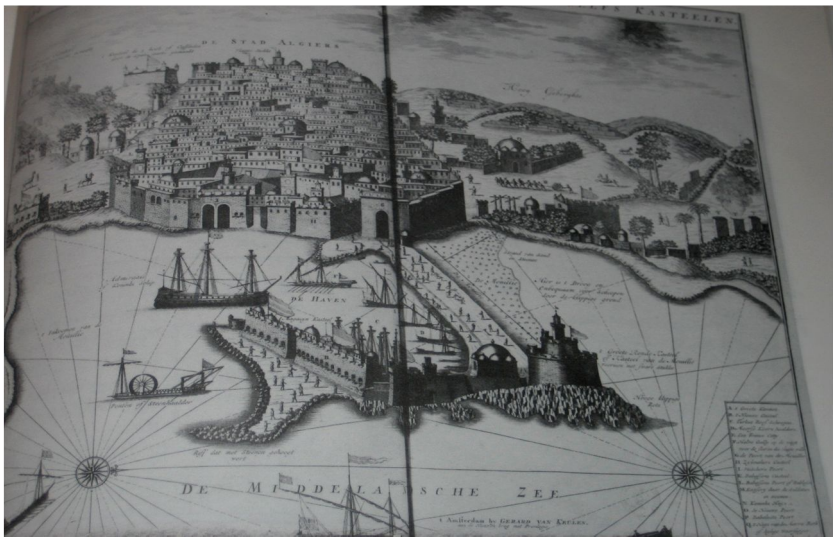

قصبة الجزائر في القرن 17م

أعمال التشويه بدأت غداة الاحتلال واستمرت بعد ذلك

باكتساح العمارة النيوكلاسيكية على حساب العمارة المحلية

الحياة اليومية للجزائريين في العهد العثماني

الحياة في فحوص القصبة في العهد العثماني